السخرية في نص (قلّة أدب) للسعيد بن زرقة.. القضايا والأنواع وآليات التشكّل

Irony in the text (Lack of etiquette) by Said bin Zarga. Issues, types and mechanisms of morphology

د فايد محمد *

د.بوطيبان آسية ♣

تاريخ الإرسال: 2021/02/06	تاريخ القبول: 14 / 04 / 2021	تاريخ النشر: 30 / 06 / 2021

الملخص:

نهدف من خلال هذه الورقة البحثية إلى الاشتغال على مدوّنة سردية عنوانها (قلّة أدب)، للكاتب والأكاديمي سعيد بن زرقة، ولعلّ أبرز أسباب اهتمامنا بهذا النص هو تصريح صاحبه بانتسابه إلى كتّاب السخرية، وبأنّ نصّه (قلّة أدب) هو عبارة عن سرديات ساخرة.

تقوم هذه الورقة على البحث في قضايا الخطاب الساخر في العيّنة التطبيقية المختارة، مع الاشتغال على أنواع السخرية وآليات تشكُّلها، وقد خلُصنا إلى تميُّز نص (قلّة أدب) للسعيد بن زرقة فهو في حدود علمنا أوّل مدوّنة جزائرية تحمل على غلافها الرئيس مؤشرا أجناسيا هو (سرديات ساخرة)، وقد عالج بن زرقة قضايا سياسية واجتماعية ودينية، توزّعت بين السخرية اللفظية وسخرية المواقف، ناهيك عن استخدامه تقانات مثل المحاكاة الهزلية وقلب الألفاظ.

الكلمات المفتاحية: السخرية، المحاكاة الهزلية، قلّة أدب، سعيد بن زرقة.

المؤلّف المرسل: د.فايد محمّد، الإيميل المهني: faid.mohamed@cuniv-tissemsilt.dz

* جامعة تسمسيلت- الجزائر faid.mohamed@cuniv-tissemsilt.dz

♣ جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة Assia.boutaibane@univ-dbkm.dz

Abstract:

Through this research paper, we aim to work on a narrative code by writer and academic Said bin Zarga, and perhaps the main reason for our interest in this text is the author's statement that it belongs to the authors of satire, and that its text is satirical narratives. This paper is based on researching the issues of satirical discourse in the selected applied sample, while working on the types of irony and the mechanisms of its formation. Bin Zarga dealt with political, social and religious issues, not to mention his use of technologies that belong to the field of satirical discourse

***Key words**: irony, parody, lack of etiquette, Said bin Zarga.*

*** *** ***

1-في مفهوم السخرية:

تشير البحوث الّتي يهتمّ أصحابها بالسخرية والخطاب الساخر إلى تجذّر هذا الأخير في التراث العربي، وهو استنادا إلى ذلك لا يزال يمارس حضوره في المؤلفات العربية إلى الآن، ثمّ إن السخرية تكاد تحضر في آداب وممارسات جميع الأمم لأنها طبيعة إنسانية، ولكنّها تتمنّع فلا يتقنها الجميع، وبالعودة إلى الثقافة العربية نستطيع القول إنها "عرفت النقائض، وقدّم الجاحظ في البخلاء مجموعة من الصور الساخرة المضحكة التي ما زالت تثير الدهشة حتى اليوم، وكذلك فعل أبو حيان التوحيدي وحازم القرطاجني وغيرهما"[1]، وفعل غير أولئك حديثا الكثير مثل أحمد مطر والرسام ناجي العلي وعشرات الكتّاب والمبدعين، وفي الجزائر نستطيع ذكر بعض هؤلاء مثل أبي العيد دودو، والسعيد بوطاجين، وسعيد بن زرقة...، كلّ بطريقة مخصوصة.

من غير اليسير "الحديث عن مفهوم واحد وموحد للسخرية، فالتاريخ الصحيح لهذا المفهوم هو تاريخ استعمالاته المتعدّدة وتداولاته على مرّ العصور في سياقات ثقافية واجتماعية متباينة"[2]، تباين المجتمعات والثقافات، ما يجعلنا لحظة محاولة تعريف السخرية نصطدم بمصطلحات كثيرة من قبيل عمل هزلي (**comique**)، وعمل هجائي (**satirique**)، وفكاهي (**humoristique**)، و مفارق (**paradoxal**)، وساخر (**ironique**)[3]، بالإضافة إلى تسميات ومصطلحات كثيرة تختلف باختلاف اللغات والثقافات.

تُعرّف السخرية عموما بأنّها "نوع من الأسلوب الهازئ، الّذي لا يُستخدم فيه الأسلوب الجدّي أو المعنى الواقعي، بعضه أو كلّه، بأن يتّبع المتكلّم طريقة في عرض الحديث بعكس ما يمكن أن يُقال، وهو أسلوب شائع بين العامة والأدباء على السواء"[4]، أي أنّها خطاب يمارس المواربة والدوران حول المعنى المقصود دون التصريح به مباشرة، ويتأسّس ذلك الخطاب "على عدم شفافية التواصل، وعلى الالتباس والتعتيم الدلالي المدرَك من قِبل المتلقي"[5] فهو ركيزة تشكّل المعنى المستهدف.

إنّ أهمية السخرية وانتشارها وتداخلها مع عديد فنون القول يبرّر جنوح بعض الباحثين إلى القول بوجود خطاب ساخر تكاد جملة مميّزاته أن تحوّله إلى شقّ من النتاجات الإبداعية المستقلة التي لها مقوّماتها وتمظهراتها، دون الجزم بالاستقلالية الكلية فالسخرية واحدة من تمظهرات كثيرة تحضر في الشعر والنثر كما تتخلل جميع الحقول المتاخمة لهما ناهيك عن كونها تلوينا محببا في الإعلام والسياسة والفلسفة وغير ذلك من حقول المعرفة والثقافة الإنسانية ما لم تنزلق إلى الإسفاف، فالسخرية هزل جاد، يستهدف تقويم أو نقد سلوكيات معيّنة، فالخطاب الساخر ينم عن رجاحة عقل وإذا لاحظنا صنيع من "يواجه المصاعب بالضحك والابتسام والسخرية والتعريض، فإننا نجد ذلك طبيعة المتعلّم المتأدب الناضج الفكر، الواسع الحيلة، الّذي يُدرك باللين والضحك والابتسام والتعريض.. أكثر ممّا يناله غيره بالعنف والقسوة"[6]، ثمّ إنّه من خلال ذلك يتجنّب الخوض المباشر في الأمور، ما يكسبه حصانة معنوية فهو يُشير ولا يصرّح، ما يؤكّد أنّ السخرية نمط كتابيّ متميّز، فهي "تجعل المخاطِب يُبحر بآرائه دون خوف من الاصطدام بالواقع، لأنّه بإمكانه الاحتماء بغير المقُول، وتجعل المتلقي يستمتع حينا ويحاول تفكيك الخطاب عقدة بعد عقدة حينا آخر، متسائلا: هل هذا هو المعنى المقصود؟ ومن خلال هذا التساؤل تتشكّل نصوص أخرى ربّما تتطابق مع المقاصد الحقيقية، أو تقترب منها"[7]، وحَسْبُ السخريّة أنها تدفع القارئ إلى الاندماج مع النص عن طريق البحث عن مخرجاته ما يحوّل القارئ إلى متقبّل مُنْتِج..

يشير الباحث المغربي أحمد شايب في معرض حديثه عن مفهوم السخرية إلى تعددّ أنواعها، وأهمها وفق طرحه السخرية اللفظية وسخرية المواقف وسخرية القدر، ويُعَرِّفُ السخرية اللفظية بالقول إنها السخرية "القائمة على قلب المعنى وهي أسلوب أو طريقة في الاستهزاء بشخص أو بشيء، وذلك بقول نقيض ما نريد إسماعه وإفهامه، فهي نتيجة لتناقض مُدْرَك من قِبل المتلقي بين مقصدية الكلام أو الخطاب والدلالة الحرفية لما قيل"[8]، وأمّا سخرية المواقف فهي أكثر أنواع السخرية تواترا في النتاجات الهزلية، و"تستند السخرية في هذا الضرب عادة إلى الأحداث والوقائع وتنشأ أحيانا من التفاوت بين الأسباب والنتائج فقد تؤدي الجهود الجبارة إلى نتائج تافهة"[9]، الأمر الذي يُوَلّدُ السخرية ويُثير الضحك. في حين يُطلق أحمد شايب على النوع الثالث تسمية سخرية القدر ومثال ذلك قصة أوديب ملكا، لأنّ سخرية القدر "رسمت مسارا مأساويا لأوديب الذي لا دخل له في كل ما حدث"[10]، حيث وجد نفسه عرضة لأحداث لم يخترها.

2-سعيد بن زرقة.. السيرة والنص:

سعيد بن زرقة أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة) بالجزائر العاصمة، أكاديمي وإعلامي ومهتم بالمسرح، وهو أحد أبرز رُوَّاد الكتابة الساخرة بالجزائر، من مؤلّفاته[11]:

-النقائض-خواطر ساخرة، 1995.

-قصر البخاري مدينة الشمس-شهادات كتّاب عالميين.

-ديوان الميسومي-جمع وتحقيق.

-الحداثة في الشعر العربي-دراسة نقدية 2004.

-قلّة أدب-سرديات ساخرة 2013.

-الزربوط، 2016.

-بوبقرة-الميلاد بعد الرحيل، 2018.

يقع نص (قلّة أدب) للسعيد بن زرقة في (158 صفحة) وهو كتيب من الحجم المتوسط، صدّره صاحبه بإهداء ومقدّمة موجزة، بيّن من خلالها الجنس الأدبي الّذي

ينتمي إليه نصّه وهو (الكتابة الساخرة)، ثمّ إنّه صنّف نفسه ضمن كتّاب السخرية، وبيّن طبيعة النصوص الّتي جمعها كتيبه فهي في الأصل نصوص تضمنتها بعض الجرائد الوطنية الأسبوعية واليومية، مثل الشروق والجزائر نيوز وكواليس.

يحتوي نصّ (قلّة أدب) 42 نصا قصيرا، وما يميّز تلك النصوص أنّ صاحبها اختار لها مجموعة من العناوين غير العادية، تُظهر أنّ صاحبها تعمّد لفت انتباه القارئ خاصة إذا علمنا أنّ بن زرقة نشر جميع نصوصه على صفحات الجرائد قبل أن يعيد جمعها ونشرها تحت عنوان (قلّة أدب)، ونذكر تمثيلا لا حصرا بعض العناوين التي تضمنتها مجموعة (قلة أدب):

-هل أنا أحسن أم صدام حسين؟.

-بوش البهلواني.

-المردود والرئيس الكوري.

-مسعود في أمستردام.

-بكالوريا في مركز الإسعاف.

-يوم ضعنا في الأندلس.

-أمّ هانئ تسأل الرئيس.

إلى غير ذلك من عناوين تستحضر بعض الأسماء أوالسياقات الّتي من شأنها دفع القارئ إلى الاطلاع على المضمون.

ومن الضروري هنا تأكيد ميزة تطبع مجموعة (قلّة أدب)، وهي أنّ جلّ نصوصها إن لم نقل كلّها ليست مجرد تخييل صِرف، ولكنّها نقل فنيّ للحظات ساخرة مصدرها معيش الناص، ومغامراته ومشاهداته.

الناص وفعل التأطير الأجناسي :

نقصد بالناص وفعل التأطير الأجناسي، وعي الكاتب بأهمية المؤشّر الأجناسي ودوره في توجيه القرّاء، والمؤشّر الأجناسي "يأتي ليخبر عن الجنس الّذي ينتمي إليه هذا

العمل الأدبي أو ذاك"[12]، فتتضمّن الروايات لفظة رواية، والدواوين الشعرية لفظة شعر، والمجموعات القصصية لفظة قصص، وهلم جرّا ...، وعادة ما يَرِد المؤشّر الأجناسي على صفحة الواجهة (الغلاف الرئيس)، وقد يتكرّر ذِكره في الصّفحات الدّاخلية وعلى صفحة الغلاف الأخير، ونستطيع القول هنا إنّ المؤشّر الأجناسي قد يتغيّر في النص الواحد، بالنظر إلى قناعات صاحبه وقناعات النقاد، إذْ عادة ما يُصنَّف النص ضمن جنس الرّواية، وتصنّفه الدّراسة النقدية بدقة أكثر ضمن النّوع الفرعي (الرّواية التاريخية) مثلا.

إنّ المؤشّر الأجناسي علامة أجناسية لا تقلّ أهمية عن العنوان، واسم المؤلف، وحتى المتن لأنّه "أحد المصاحبات النصية الّتي يمكن أن تُسيّر عملية التلقي"[13] ، بل هو كذلك، حيث يؤدّي تجنيس عمل إبداعي ما بجنس رواية لا محالة إلى قراءته وفق اشتراطات الكتابة الروائية، كما إنّ تصنيف نص (قلّة أدب) ضمن خانة الكتابة الساخرة دفعنا إلى قراءته وفق اشتراطات الكتابة الساخرة، وتَدْخُل العناية بالمؤشّر الأجناسي ضمن الخطاب النقدي المهتمّ بالتّصنيف.

المُلاحظُ أنَّ التصنيف في المكتبات الغربية يكون "دقيقا وينهض على أسس محدّدة ومضبوطة : نجد توزيعا للأعمال السردية والروائية حسب نوعيتها : الرّواية البوليسية – المغامرات –المشاهدات – الرحلة – الخيال العلمي – السيرة الذاتية – الرّواية التاريخية ..."[14] ما يسمح لكلّ مهتمّ باختيار ما يناسب ذوقه، عكس المكتبات العربية، حيث لا تتضمّن "في العادة تمييزا بين الأجناس فبالأحرى الأنواع، وحيث يتمّ التمييز بين الأجناس والأنواع الأدبية نجد خانة كبرى تحمل اسم رواية، وهي الأكثر رواجا تجاريا ومقروئية، وقد نجد تصنيفات حسب الكتَّاب أو الأقطار العربية"[15]، هذا في البلدان العربية الّتي تعرف حركة نشر متطوّرة بعض الشيء، أمّا تلك الّتي تعاني أزمات عدّة فيندر أن تجد في مكتباتها تصنيفا أصلا، لأنّ بعض المكتبات قد لا تتضمّن من النصوص الأدبية ما يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وعليه فإنّ صنيع سعيد بن زرقة عندما ضمّن غلاف مجموعته (قلّة أدب) مؤشرا أجناسيا هو (سرديات ساخرة)، يؤشر على وعي بأهمية التجنيس، كما أنه يشي بجرأة سعيد بن زرقة لأنه وعلى عكس الكتّاب

الّذين يجنحون إلى المؤشرات الأجناسية الرائجة اختار عبارة لا نعتقد أنّ كاتبا جزائريا سبقه إليها، بالطبع نقول ذلك بتحفظ وبالنظر إلى اطلاعنا غير الموسّع على جميع ما صدر من نصوص سردية جزائرية.

نستطيع القول إنّ نص (قلة أدب) يتضمّن ثلاث إشارات أجناسية هي:

-التجنيس بالمؤشر الأجناسي: حيث ورد في الغلاف الرئيس مؤشر أجناسي جديد في عالم الكتابة الأدبية الجزائرية وهو (سرديات ساخرة)، عكس نصوص أخرى كثيرة فضل أصحابها عدم المغامرة واكتفوا بمؤشرات من قبيل (قصص، نصوص، نصوص مفتوحة...)، بالإضافة إلى النصوص صريحة الانتماء إلى الرواية أو القصة القصيرة، أو غير ذلك من الأنواع والأنواع الفرعية. وقد تكرّر المؤشر الأجناسي الذي ذُكِر على الغلاف في صفحات داخلية أخرى.

- **تجنيس بالإهداء:** تضمّن الإهداء الّذي صدّر به بن زرقة نصّه (قلّة أدب) العبارات الآتية:

(إلى..

عمر وارد..

عبد القادر رحّال..

أحمد بن عقُّون المدعو الشاوي..

رموز السخرية الشعبية وصُنَّاع الفرجة في مدينة الشمس)

وجليّ أنّ إهداء النص إلى رموز السخرية الشعبية، هو إمعان في تجنيس النص ضمن الكتابة الساخرة.

- **تجنيس بخطاب المقدّمة:** يستمر سعيد بن زرقة في فعل التجنيس في المقدّمة الموجزة الّتي صدّر بها مجموعته (قلّة أدب)، فهو تارة يجنّس النص بقوله: "حاولت في هذه المجموعة جمع بعض شملي الّذي كنت قد وزّعته في فترات متباعدة ومتقاربة عبر عناوين صحفية مثل الشروق الثقافي واليومي، والأحرار الثقافي، والجزائر نيوز

وكواليس..، يتمثّل هذا الشمل في سرديات بهوية حربائية وبنكهة تبدو ساخرة..."[16]، وهو تارة أخرى يصنف نفسه ضمن كتّاب السخرية: "المشَاهِدُ في حياتنا ملوّنة في أغلبها بالسخرية السوداء، الّتي تتجاوز ما يحلم به أمثالي الّذين يُحسبون على الكتابة الساخرة"[17]، وهذا تجنيس صريح للنص والناص على السواء.

3-قضايا الخطاب الساخر في (قلّة أدب):

يعرّف سعيد بن زرقة السخرية بقوله: "هي رؤية ما لا يرى، وسماع ما لا يُسمع، وهي اكتشاف لوجوه خلفية..والبصّ من ثُقب الباب على ما يحدث، ومعرفة ما يجري وراء خشبة المسرح..السخرية هي كشف جديد..يهمّها النوى لا القشر ..العمق لا السطح، مغامرات البحّار لا زرقته..ما يحدث في قلب المرآة لا المرآة..."[18]، أي أنّها فعل مناور لا يغريه السطح بقدر ما يجتذبه العمق، وترتسم السخرية وفق رؤية بن زرقة بوصفها حاسة سادسة لا يحوزها الجميع، ولا يستطيعها إلاّ أصحاب النظرة الثاقبة التي تغوص في أعماق الأحداث والشخوص، كما يعتقد بن زرقة أنّ السخرية "أهمّ كتابة جادة"[19]، فهي لا تثير الضحك إلا بقدر ما يهدف صاحبها إلى الإصلاح وانتقاد السلوكيات التي تنخر المجتمع، "ومن ثمّ فالسخرية هي ردّ فعل تجاه كلام أو عمل أو مظهر يبدو للمرسِل خارجا عمّا هو متوقّع أو مألوف أو لائق...ولهذا اعتُبر الضحك نوعا من التوبيخ الاجتماعي"[20]، استثمره بن زرقة لنقد المجتمع، وقد توزعت مادة المدوّنة عيّنة البحث بين تناول القضايا السياسية والاجتماعية والدينية، مع تفاوت في حجم المساحة المخصصة لكل قضية، وسنحاول في الآتي عرض بعض النماذج التي تناول بن زرقة من خلالها تلك القضايا.

يناقش بن زرقة قضايا سياسية في نماذج كثيرة من نصه (قلّة أدب)، ولكنّنا تجنّبا لإثقال الورقة البحثية سنُشِير إلى نموذجين فقط، يتناول في الأول الواقع السياسي في الجزائر، وفي الثاني يقدّم مشهدا ساخرا يتعلّق بالساسة والسياسيين في العالم العربي. يستحضر بن زرقة في النموذج الأوّل الفترة الّتي شغل فيها منصب رئيس تحرير جريدة (الحقيقة)، حيث أجرى فريق هذه الأخيرة سبر آراء لمعرفة توجهات الهيئة

الناخبة في الجزائر قبيل الانتخابات الرئاسية، وأظهرت النتائج تقدّم (أحمد طالب الإبراهيمي)، فيما حلّ الرئيس (اليامين زروال) ثانيا، وكانت المرتبة الثالثة من نصيب (مولود حمروش)، وبالنظر إلى تلك النتائج "قامت القيامة، وجاء أحد (الخلاّطين) واقترح عليّ تقديم الرئيس زروال في الترتيب، فقلت له: سبر الآراء يقول غير ذلك، واللجنة هي الّتي قرّرت، ضحك الخلاّط ضحكة مدوّية وقال لي: نحن نستطيع أن نُخرج رئيسا جزائريا في مالي وفي نيجيريا، وأنت تعجز عن إخراجه في قصاصة ورق"[21]، و(الخلاّط) في المتداول الجزائري صفة الشخص الّذي يسعى إلى التخريب المادي والمعنوي، وهو هنا أحد الوصوليين والانتهازيين الّذي يستهدفون إرضاء السلطة على حساب المصداقية، وجليّ من خلال هذا النموذج تسرّب "السخرية بوصفها أداة سياسية إلى المحكي"[22]، حيث اتخذّ بن زرقة السخرية وسيلة لكشف تورط الانتهازيين في التزوير، فالانتهازي الّذي طلب تغيير نتيجة سبر الآراء، سخر من بن زرقة وقال له كيف لا تستطيع تغيير تلك النتيجة ونحن نستطيع تزوير نتائج الانتخابات في مالي وفي نيجيريا، وإمعانا في السخرية وتأكيدا لفداحة فكر السلطة ورجالها أشار الانتهازي لمقدرتهم أن تُظهر نتائج الانتخابات في البلدين رئيسا جزائريا.

وفي النموذج الثاني يسخر بن زرقة من السياسيين العرب، في نص عنوانه (الساسة ودليل الانتحار)، ويستعيد الكاتب في هذا النص اطلاعه على خبر عن المؤلف الياباني (توسوروومي) صاحب كتاب (دليل الانتحار الكامل)، حيث صرح (توسوروومي) "أنّه أهدى مجموعة كبيرة من نسخه إلى الزعماء والساسة في العالم، باعتبار أنّهم أكثر الخلائق عرضة للفشل بمن فيهم ساسة العرب، الّذين تمنّى أن تكون الطبعة الثانية من النسخة مخصصة لهم"[23] نظرا لانتكاساتهم الكثيرة وفشلهم الذريع الّذي يُعَدُّ بحق ذريعة قوية للانتحار، ولكنّ آمال بن زرقة خابت لأنه ومن اليوم الذي قرأ فيه الخبر "وأيامه كلّها نشوة وانتظر أن ينتحر أحد الساسة العرب اعترافا بالخطأ والخطيئة، غير أنّ هذا لم يحدث"[24]، ولكنّ ذلك لم يمنع بن زرقة من اتخاذ ذلك "ذريعة للسرد الذي ينزلق باستمرار نحو تحليل الوضع السياسي"[25]، لإدانة السلطة عن طريق إدانة

ممارسات واقعية دون التصريح المباشر بالجهة المقصودة، فالسخرية إجمالا تعتمد "على دلالات التقنّع والإخفاء والمواربة"[26]، ولا أدلّ على ذلك من تجنُب بن زرقة الإشارة إلى حاكم أو سياسي عربي معيّن تفاديا لأيّ مساءلة.

انتقد سعيد بن زرقة سلوكات اجتماعية كثيرة، ونورد في هذه الورقة البحثية نموذجا واحدا ناقش فيه الكاتب تصرفات مشينة، أبطالها (جن إنسي) وهو يقصد هنا سراق المال العام من الانتهازيين والوصوليين، ففي عيّنة قصصية عنوانها (يوم التقيت الجن) يروي بن زرقة تفاصيل زيارة قادته إلى شمال السعودية، حيث زار عدة مناطق من بينها (قاع الصير)، التي تقع بمنطقة (حائل) وهي منطقة يُقال إنّها موطن قبيلة الجنّ، ويذكُر كيف نصحه صديقه والفريق الّذي معه بتجنب النزول إلى الوادي بالمنطقة، وكيف أنّهم اندهشوا من شجاعته ووصفوه بأنّه عنترة الجزائري، ليردّ هو قائلا إنّ الجنّ في (قاع الصير) عرفوا أنّه جزائري، وأنّ بعضهم هاجر من الجزائر بعد فشله في مهامه أمام نوع جديد من جنّ الإنس في الجزائر.

وهذا بعض ما تضمنته العيّنة: "أعددنا العدّة وقرأنا ما تيسّر من القرآن، وامتطينا سيارة رباعية الدفع، ولمّا وصلنا حذّرني صديقي سلطان بعدم الاقتراب من المكان، وذكّرني بأنني أمانة في عنقه. تعهّدت أمام الجميع بتحمّل مسؤولياتي ونزلت إلى قاع الصير وأخذت له صورا من جميع الجهات، فلا طير ولا زرع ولا شجر، وعُدت إلى الجماعة فوجدتهم في غاية الدهشة من شجاعتي وتهوّري، وقال لي سلطان أنت عنترة الجزائري، فأجبت الرجل لا عنترة ولا أبو زيد الهلالي ولا يحزنون، كلّ ما في الأمر أنّهم عرفوا أنّني من الجزائر، وأنّ هؤلاء الجن تلامذة جن الجزائر، وأنّ بعضهم هاجر من الجزائر اعترافا بفشله في مهمته"[27].

وعن سبب فشلهم ذاك، يواصل بن زرقة إمعانه في السخرية، بالقول إنّ جنّ الإنس في الجزائر من السراق والوصوليين لا يعترفون بفضل جن (قاع الصير)، لأنّهم وبدل ردّ نجاحاتهم إلى دروس هؤلاء، يكذبون ويرفعون لافتات على أبواب عقاراتهم وشركاتهم تحمل عبارة (هذا من فضل ربي)، يقول بن زرقة على لسان جن (قاع الصير) الّذين هاجروا من الجزائر بعد فشلهم في مهمتهم: "ومهما علمناهم سُبُل السرقة وتحويل

أرزاق الناس والبلد، لا يُرجعون الفضل فيه إلى الجن، بل يكتبون على أبواب فيلاتهم ومحلاتهم وشركاتهم و(سوبرماركاتهم)... وهذا من فضل ربي"[28] ، إن بن زرقة من خلال هذه العيّنة يجعل من السخرية "سلوكا اجتماعيا، ولذا فهو يُقَوِّمُ، ولكن ماذا يقوّم؟ إنّ يقوّم الرعونة"[29]، رعونة أولئك الانتهازيين الذّين يسرقون رغيف الشعب، ثم يدّعون أنّ الله رزقهم، رعونة الحكّام والمحكومين، وكلّ منتسب إلى المجتمع يخرج عن مواضعاته الحميدة.

تتضمّن مجموعة (قلة أدب) اشتغالا ساخرا على قضية دينية، فحواها تحجّر الخطاب الديني لدى إمام القرية الّتي ينتسب إليها سعيد بن زرقة، فهذا الإمام وبدل أن يطوّر نفسه ويساير في دروسه وخطبه تطوّر المجتمع القروي بمعالجة ما يعيشه أهل القرية، وبدل حتى أن يعلمهم أمور دينهم، ظلّ طيلة ثلاثين سنة يلوك درسا واحدا يتعلّق بحرمة شرب الخمر، حتى ليخيل لسامعه أن شباب القرية يدمونون المسكرات بشتى أنواعها، وأن القرية النائية أصبحت مركزا لصناعة وتجارة واستهلاك الخمر، يقول بن زرقة: "شَكَّكَنَا الإمام بحديثه المسلسل عن الخمرة في أن قريتنا غارقة بالمشروبات الكحولية من نبيذ ورديّ إلى أبيض، إلى خمر إلى الكونياك.. العرق.. الفودكا.. الشامبانيا.. الجعة.. السكوتش، وكوكتيلات اخرى من المشروبات، وفي ختام أحد دروسه الخمرية سأله احد الشباب عن بيرة الشعير بدون كحول، فأجاب على طول بيرة الشعير أو القمح أو الحمص أو الدقيق، حرام في حرام..."[30].

4-أنواع وآليات تشكّل الخطاب الساخر في (قلّة أدب):

أشرنا في المقدّمة النظرية في بداية هذه الورقة البحثية إلى أنواع السخرية، وهي سخرية الألفاظ وسخرية المواقف وسخرية القدر، وفي هذه المحطة من ورقتنا هذه سنركز على نوعين من السخرية تَمَّ إعمالهما من قِبل الناص وهما سخرية الألفاظ وسخرية المواقف.

تتحقّق سخرية الألفاظ أو السخرية اللفظية "على المستوى الدلالي باعتبارها تناقضا في الدلالة، وعلى المستوى التداولي باعتبارها تحمل شحنة من الاستهزاء"[31] الذي

يصنع الضحك لدى المتلقي، ونماذج ذلك في (قلة أدب) كثيرة، نورد تمثيلا نصه الموسوم (يوم ضعنا في الأندلس 1)، ويستحضر بن زرقة في هذا النص قصة رغبته وصديقه بن احمد توفيق السفر إلى المجر، وكيف أنهما لم يوفقا في ذلك بسبب انعدام الأماكن الشاغرة، وعدم قدرتهما الحصول على تذكرة، الأمر الّذي دفعهما إلى تغيير الوجهة والسفر إلى البرتغال باقتراح من موظفة الخطوط الجوية الجزائرية بعد التماس قدّماه لها: "بعد الكرّ والفرّ التمسنا منها أن تختار لنا مكانا غير محجوز، فأشارت لنا بالبرتغال وشرحت لنا بأن هذا المكان يتحمّس له المتقاعدون لتوفّر سُبُل الراحة فيه، ولا يليق بالشباب أمثالنا، فأجبتها سافرًا، مكان مع المتقاعدين أحسن من مع القاعدين..."[32]، فلعب بن زرقة على الألفاظ يبعث على الضحك، والأمر نفسه نلمسه في نص عنوانه (حلال وجلال) يورد من خلاله مأساة مواطن من قريته يدعى جلال، ولكن كاتب البلدية أسقط النقطة من اسمه لحظة تسجيل عقد زواجه، ما حتّم عليه التطواف بين الإدارات بحثا عن النقطة التّي حولت حياته إلى جحيم[33].

أمّا سخرية المواقف فنمثّل لها بعيّنة عنوانها (كريستين والحمار) وتحدّث بن زرقة فيها عن قصة فتاة فرنسية كانت تزور حيّهم كلّ صيف، وكان بمعية زملائه يرافقونها ويعرّفونها الحيوانات الأليفة في إسطبل جارهم، وحدث أن بعثت كريستين رسالة إلى صاحبنا ففرح فرحا غامرا "بعد أسابيع سلّم ساعي البريد رسالة إلى العبد لله، الختم يقول إنها من باريس، سارع إلى فتحها ، تزايدت دقّات قلبه لمّا علم أنّ الباعث هي كريستين، وأنّه حان الوقت للانتقام من عبلات الحارة ، اللواتي ينتفشن كالطاووس كلّما حاول العبد لله الهمس إليهن بكلمات الودّ"[34]، غير أنّ سخرية الموقف تجلّت في الصدمة الّتي تلت قراءة الرسالة: "خيبة العبد لله كانت كبيرة ، لمّا وجد الخطاب كلّه ثناء ومدح في الحمار، فمركبه رقّة.. ولا رقة المرسيدس، وطبائعه هادئة ولا هدوء نهر شولوخوف، وأخلاقه نبيلة نبل الملوك، ولونه الليل، وعيناه تتّسع لمركب الأميرة ديانا، وفي آخر الخطاب رجت من العبد لله نيابة عنها إيصال (بيزو) إلى المدلّل الحمار. شددنا أنفاسنا للحظات، ثم انفجرنا ضاحكين وتمرّغنا على التبن"[35]، تدفع سخرية الموقف هنا المتلقي إلى الضحك، فمتلقي رسالة كريستين كان يعتقد أنّه موضوع خطابها وقد جهّز نفسه

للسخرية من فتيات الحيّ فإذا به يُصدم باهتمام الفتاة الفرنسية بالحمار وحده، وحتى القبلة الّتي ذيّلت بها رسالتها فهي موجّهة خصيصا للحيوان الّذي أحبّته.

لقد شكّل سعيد بن زرقة نصوصه الساخرة في مجموعته (قلّة أدب) استنادا إلى تقانات أهمها الاستعارات والسؤال الساخر والوصف المضحك والمبالغة في التصوير والذم فيما يشبه المدح، والمحاكاة الهزلية وقلب الكلمات والأحرف، والمقابلة بين الأضداد وغير ذلك من آليات تشكيل الخطاب الساخر عموما[36]، غير أن اشتغالنا سيقتصر على آليتين هما المحاكاة الهزلية وقلب الأحرف والكلمات.

المحاكاة الهزلية ترمي "إلى خلق أثر استهزائي لدى المتلقي للخطاب، وهي تقوم على اشتقاق نص من آخر عن طريق التبديل والتغيير على نحو يسمح بانبعاث السخرية والاستهزاء"[37]، أيّ أنّها محاولة بناء نص جديد على هامش نص سابق[38]، وتختلف المحاكاة الهزلية عن نمط آخر من آليات تشكيل الخطاب الساخر وهو (التناص الهزلي)، حيث يمكن اعتبار المحاكاة الهزيلة أحد أصناف التناص الهزلي، فالأخير يتم من خلاله استحضار نص سابق استحضارا كاملا، في حين ان المحاكاة الهزلية يتم فيها الاقتصار على استحضار دلالة نص سابق والاكتفاء بتمثل لفظة واحدة منه أو عبارة أو المعنى العام للنص[39].

تَحْضُر المحاكاة الهزلية في مجموعة (قلّة أدب) ضمن نص عنوانه (أشعب)، ويحاكي سعيد بن زرقة قصة أشعب والطفيليين عموما، فيقول إنّ نماذج تشبههم تظلّ حاضرة على مرّ التاريخ وفي كلّ المجتمعات بمختلف طبقاتها، ليُشير إلى نموذج هؤلاء في مدينته، وهم الذين أُطلِق عليهم تسمية (الطعامجية): "إن أشعب لم يمت في القرن الثامن، فروحه تناسخت في أرواح الوزراء والمثقفين والكتّاب والصحافيين وعامة الناس، فيوجد أشعب الصالونات، وأشعب السفارات، وأشعب الرّحلات وأشعب الجنايات وأشعب الجنازات... فأشعب قد يكون حاملا لربطة عنق، أو رثًّا عاريا هزيل العنق، ولكلّ قرية أو مدينة أشعبها. واشتهرت مدينتي في السنوات العجاف الأخيرة بالأشعبية، وهم عبارة عن طفيليين من عامة الناس وخاصتهم يتصيّدون المناسبات،

فيحطّون على الدار من دون سابق إنذار، كالجراد المرّاد، فيأتون على قصعها، ولا تستسلم ملاعقهم إلاّ بعد أن تتحوّل القصعة إلى صحراء قاحلة أو قاع صفصف، أطلق سكان المدينة على هؤلاء الطفيليين اسم الطعامجية الّذين يحفظون عن ظهر قلب تواريخ الولائم بالمدينة ويضبطون ساعتهم على أفراحها وأحزانها، وبمرور الزمن قويت فيهم حاستان، حاسة شمّ الطعام، وحاسة سماع البرّاح وهو ينعي موتى المدينة"[40]، وإنه لمن الواضح أنّ بن زرقة يحاكي نص أشعب وفق ما ترسخ عنه في مخيالنا الجمعي ليرسم صورا ساخرة عن تجليات صنيعه في نماذج من ساكنة مدينته.

ونلمس آلية قلب الأحرف والكلمات في عينيتن أشرنا لهما لحظة الحديث عن أنواع السخرية في مجموع (قلة أدب)، وعليه نتجنب هنا إعادة إيرادهما بغية عدم إثقال ورقتنا البحثية بتكرار عيّنة تضمنتها الصفحات السابقة وعليه سنكتفي فقط بذكر موطن القلب في العيّنين، ونبدأ بالإشارة إلى قلب الأحرف في عيّنة عنوانها (حلال وجلال)، حيث أدى خطأ ارتكبه كاتب البلدية إلى معاناة المواطن (جلال) الذي فقد النقطة من اسمه وفقد معها سكينته، أما النموذج الثاني فورد في العيّنة الّتي عُنوانها (يوم ضعنا في الأندلس)، حيث فضل الشاب رحلة إلى خارج الوطن مع المتقاعدين، على أن يمضي عطلته مع القاعدين في الوطن، ولا ضير من إضافة نموذج آخر تضمنته العينة نفسُها، ويتجلّى في قلب الأحرف حيث قالت جدة بن زرقة وهي تودعه قبيل سفره إلى البرتغال: "ربي يستر من البرتقال"[41]، والقلب هنا يثير الضحك عن طريق استثمار العامية التي تكلّمت بها الجدة، حيث إنّ سكان بعض الجهات في الجزائر يقلبون الغين قافا.

خاتمة:

الكتابة الساخرة وفق طرح بن زرقة كتابة جادّة، يستهويها العمق لا السطح، وهي تروم رسم البسمة وصناعة الضحك عن طريق ممارسة النقد، نقد الذات والمجتمع، وقد تضمّنت مجموعة (قلة أدب) معالجة ساخرة لعديد القضايا السياسية والدينية والاجتماعية، ولعلّ أهمّ مميّزات سرديات بن زرقة الساخرة أنّها ليست مجرّد تخييل حاكه السارد لطرح ما يعتمل في المجتمع من قناعات تُترجمها سلوكيات الأفراد،

بل هي نتاج معيش الناص، الّذي استطاع نقلها بآليات تشكييل ساخر قوامه تقانات أبرزها المحاكاة الساخرة وقلب الألفاظ.

الإحالات:

1 **حافيظ اسماعيلي علوي، لغة الخطاب الساخر مقاربة تداولية حجاجية، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة الأولى)، منشورات فريق البحث –الفكاهة في الأدب والثقافة، جامعة ابن زهر المغرب، دار أبي رقراقف للطباعة-الرباط، المغرب، ط1، 2008، ص 55.**

2 **أحمد شايب، مفهوم السخرية، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة السادسة) منشورات فريق البحث –الفكاهة في الأدب والثقافة، جامعة ابن زهر المغرب، دار أبي رقراقف للطباعة-الرباط، المغرب، ط1، 2015 ، ص 09.**

3 **ينظر: عبد الرحيم الخلادي، خطاب السخرية في الكتاب المدرسي بين المقررين القديم والجديد (كتاب اللغة العربية بالثانية بكالوريا نموذجا، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة الرابعة)، منشورات فريق البحث –الفكاهة في الأدب والثقافة، جامعة ابن زهر المغرب، دار أبي رقراقف للطباعة-الرباط، المغرب، ط1، 2013، ص 295.**

4 **محمّد التونجي، المعجم المفصل في الادب، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 1999، ص 522.**

5 **أحمد شايب، مفهوم السخرية، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة السادسة)، مذكور، ص 17.**

6 **السيّد عبد الحليم محمّد حسين، السخرية في ادب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1988، ص 5-6.**

7 **حمو الحاج ذهبية، البعد التداولي للسخرية في الخطاب القصصي الجزائري، مجلة الأثر-جامعة ورقلة-الجزائر، العدد 17، جانفي 2013، ص 18.**

8 **أحمد شايب، مفهوم السخرية، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة السادسة)، مذكور، ص 13.**

9 **المرجع نفسه، ص 15-16.**

10 **فايد محمّد، موضوعات الخطاب الساخر وآليات اشتغاله..جلالة عبد الجيب للسعيد بوطاجين نموذجا، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة أزاد الإسلامية-إيران المجلد 12، العدد 46، صيف 2020، ص 33.**

11 **ينظر: سعيد بن زرقة، قلّة أدب، دار فيسيرا للنشر-الجزائر، دط، 2013، ص 158.**

12 **عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص) منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2008، ص89.**

13 كمال الرياحي، الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج، منشورات كارم الشريف –تونس، ط1، 2009، ص149.

14 سعيد يقطين، قضايا الرّواية العربية الجديدة (الوجود والحدود)، الدار العربية للعلوم –بيروت، ودار الأمان –الرباط، والاختلاف –الجزائر، ط1، 2012، ص81.

15 المرجع نفسه، ص81و82.

16 سعيد بن زرقة، قلّة أدب، ص 07.

17 المصدر نفسه، ص نفسها.

18 نفسه، ص 10.

19 سعيد بن زرقة، قلّة أدب، ص 131.

20 المدني بورحيس، تجليات الضحك والسخرية في ظاهرة التكرار، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة الثالثة)، منشورات فريق البحث (الفكاهة والسخرية في الأدب والثقافة)، جامعة ابن زهر-أكادير المغرب، دار ابي رقراق للطباعة-الرباط-المغرب، ص202.

21 سعيد بن زرقة، المصدر السابق، ص 57.

22 دانيال فورجي، السخرية..استراتيجية الخطاب وسلطة الحجاج، ترجمة: ربيعة العربي، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة الثالثة)، منشورات فريق البحث (الفكاهة والسخرية في الأدب والثقافة)، جامعة ابن زهر-أكادير المغرب، دار ابي رقراق للطباعة-الرباط-المغرب، ص88.

23 سعيد بن زرقة، قلة أدب، ص 90.

24 المصدر السابق، ص نفسها.

25 محمّد مفضال، جماليات السخرية في رواية "اللجنة" لصنع الله ابراهيم استطراد، استكشاف واستفزاز، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة الثالثة)، مذكور ، ص 122.

26 رشيد أترحوت، مهازل القداسة أنثروبولوجيا الضحك والمقدس في النص الثقافي الإسلامي (مقدمات أولى) ضمن الكتاب الجماعي أبحاث في الفكاهة والسخرية، الورشة الثالثة، مذكور، ص 67.

27 سعيد بن زرقة، قلّة أدب، 125/124.

28 المصدر السابق، ص 125.

29 علي البو جديدي، الضحك في فلسفة برغسون..محاولة قراءة، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة السادسة)، مذكور، ص 145.

30 سعيد بن زرقة، قلة أدب، ص 154.

31 أحمد شايب، الضحك في الأدب الأندلسي دراسة في وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله، دار أبي رقراق للطباعة والنشر-الرباط المغرب، ط1، 2004، ص 188.

32 سعيد بن زرقة، قلّة أدب، ص 134.

33 ينظر سعيد بن زرقة، قلّة أدب، ص 110/109.

34 المصدر نفسه، ص 83/82.

35 نفسه، ص 83

36 ينظر: رابعة سوساني، المضحك في السيرة الذاتية (في الطفولة لعبد المجيد بن جلون نموذجا)، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة الثالثة)،.مذكور، ص 38/37.

37 محمّد بوستة، آليات اشتغال السخرية في النص الزجلي المغربي الحديث، ضمن ابحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة السادسة)،مذكور، ص 291/290.

38 ينظر: رابعة سوساني، المُضحك في خُطب ولمية سوسية، ضمن أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة الرابعة)، منشورات فريق البحث الفكاهة والسخرية في الثقافة والأدب، جامعة ابن زهر اكادير المغرب، دار ابي رقراق للطباعة والنشر-الرباط المغرب، ط1، 2013، ص 27.

39 ينظر محمد بوستة، المرجع السابق، ص294.

40 سعيد بن زرقة، قلّة أدب، ص 146.

41 المصدر نفسه، ص 135.